الغَرَق.. مَرَّتيْن!

أحمد صلاح محمد هاشم

يختَلِجُ قلبُهُ وتتسارع أنفاسه حين يأوي إلى حجرته المظلمة سوى من شعاع يباغت ثقيل الستائر يبدد شيئًا من سكون الغرفة الهامدة، يتأكد من انغلاق بابها، ينظر بارتياب أسفل السرير: «من أين ستأتيني اليوم؟!» يسأل نفسه.

يفتح النور بحركة فجائية، يستغفر الله، ثم يعيد إغلاقه، مانحًا عينيه اغماضة خجلى، يسحب غطاءه، غير مبالٍ بسخونة الهواء المتململ، محركًا رأسه في اتجاه الفضاء، مشكلًا بجسده جنينًا لن يولد، غارقًا في سائل الحلم اللزج، ملصقًا ظهره بتجاعيد مرتبة السرير، يُشبِه كائنًا هلاميًّا لم يتجسد بعد، يجوس الحلم في مخيلته، هو الحلم نفسه دائمًا، يمسك برأس فتاة في العشرين، يغطسها في الماء فتنفر المياه من فمها، ترجوه أن يتركها تعيش، تقسم أنها لن تفضح للنور سرًّا أصبح بين ملابسها الشفافة وجسدها، يضغط عليها مرة أخرى، فيتراقص الماء حولها، تخرج رأسها للمرة الأخيرة، ضعفت مقاومتها، انفغر فمها، انفتحت عيناها، تجمدتا، سوى لمعة خافتة، هبط الليل فجأة!

أحسّ بين اليقظة والنوم، في تلك الاستراحة الفاصلة بين حلمين، أو حلمٍ ويقظة، بفحيح يقترب من أذنيه، صوت أجش مزعج:

-(هانَتْ)!

يرتعش من الكلمة يفتح عينيه فجأة، يجدها في ركن الغرفة بشعرها الأسود، وعينيها الكحيلتين، بجسد أتلفته المياه، ووجه تبرز عظامه، حتى تكاد تقبِّل أرضية الغرفة، يصرخ، فتنحشر الصرخة، ثم تختفي الصورة الداكنة.

-«هل تعرف هذه الفتاة؟!»

أومأ سعيد برأسه نافيًا، متجاهلًا ماضيًا يعرفه عن كَثَب، مطوِّحًا إلى الفراغِ قصةً غَزَلَتْ خيوطَها شرنقة لن تُخرِج فراشة، تقبل في انقلاب حاجبيه رعونتَه ودمويتَه، يلقي أمام الطبيب وجعَه، كرحَّال أتعبه طول السفر:

- لم أعد أنم سوى بطفلي إلى جواري، أخشى من كل شيء، يكاد مُخِّي ينفجر من قلة النوم، أخشى الظلام بشدّة!

- ربما هي حالة ناتجة عن الإجهاد الشديد، ربما كذلك يكون السبب وفاة زوجتك، أنصحك بأن تتجاوز هذه المرحلة وتنشغل بأي عمل، ابنك يحتاج إليك!

يلعن نفسه بسبب النقود التي وهبها طبيبًا جديدًا غير عابيء، ليخبره بالترهات ذاتها؛ أن ينسى زوجته التي لم يعد يتذكر ملامح وجهها، سعى للزواج من كل معارف أمه، غير أنه لا امرأة ترضى بالزواج من أبٍ لطفلٍ صغير يحبو، تركته أمه وانزوت خلف شعاع الشمس في ليلة باردة.

ربتت على وجْنَتِه، وقبَّلَتْه، شدَّ بطانيته، وأغلَقَ عينيه، وراح في سباته اليومي، زاره الحلم نفسه، استيقظ لاهثًا ليجدها في ركن الغرفة بهيئتها المزرية حينما أغلق عليها تيار الحياة، غير أن عظامها بادية أكثر مما يجب، يتساقط جلدها، يتقشَّر عن لحم أحمر مشرب ببياض، أسفل عين تقدح شراراتها في أركان الغرفة، كأنما هي محض برق يجلد ظهر السماء، ينبضُ قلبُهُ فجأةً، يغطي وجهه

مرتعشًا يجري إليها، في حركة دفاعية، يفتح مصباح الكهرباء، يجدها تلاشت، ينظر إلى زوجته فيجدها جاحظة تشير إليه بيديها، كأنها تختنق.

توقف مبهوتًا، لا يدري ماذا يفعل؟! جرى إليها، حاول مد يده في فمها ليُخرِج ما علق به، الشهقة تزداد، والحشرجة تستمر، تمد يديها تستنجد باللاشيء، ظهرت المرأة الغارقة من جديد في ركن الغرفة رغم الضوء، رآها لكنه للمرة الأولى لم يعرها انشغاله، كان منكبًّا على زوجة تسكب رشفتها الأخيرة، أشارت إليها زوجته في رعب متزايد، الآن هي تراها مثله، وابتسمت كأنما تحييها، يا للهول!

ازرقَّ وجهُها، جحظَتْ عيناها، تخشَّبَتْ يداها، في لفتتها الأخيرة التي لا ينساها، أشارت إلى ابنه ثم ضربت على صدرها، كأنها توصيه به، سلمت روحها، واختفت الصورتان معًا، وتوافد المعزُّون!

حين انتهت المحاضرة المملة الأخيرة، عرض على زميلته أن يوصِلَها إلى منزلها في جزيرة الوراق، كان أعد العدة قبلها بيوم، واتفق مع صديقه على كل التجهيزات، يرى القارب مربوطًا إلى جوار المرسى، فيشير إليه، تتعجب (لبنى) من تأجيره قاربًا ليوصلها، بوجهها الأحمر عكست سعادة بفتاها الأول، تجلس أمامه يمد مجدافيه، ويسرع في منتصف الطريق يحاول مداعبتها، تنفض يديه، وتتصنع الجد، يحاول مرة أخرى، فترفض، يضربها بالقلم على وجهها، فارتطم رأسها بمقدمة القارب، وتسقط مستسلمة لأصابعه التي جاست في جسدها، واستباحت ملابسها، وأعملت فيها تمزيقًا، وفي روحها إلهابًا وتجريحًا!

بعد أن انتهى منها، أحس بالرعب جراء ما فعله، قامت فانهالت عليه ضربًا وركلًا وأقسمت أن مصيره الإعدام، لقد تمادى كثيرًا، حتى هو أدرك أنه تمادى

للغاية، لَمَعت الفكرة في رأسه، كم أخبرته من قبل إنها لا تعرف العوم، بضربة واحدة من المجداف كان قد ألقاها في المياه، وبضربة أخرى على رأسها في المياه أفقدها وعيها، بين أحضان المياه فقدت نضارتها، احتضنها البحر فأسلمت جسدها تقاوم الغرق بالاستسلام، بعين مكحلة ستطارده في نومه، وفم شبه منفتح يصب عليه اللعنات!

في ظلمة الليل الموحش، تاركًا طفله عند جدته، عاد مترنحًا بعد جلسة سجائر مغمّسة بغياب العقل وهذيان الليل، أسلم يده لكشاف جيبه، فبدد شيئًا من دكونة الظلام وتراكُب الضباب الشفاف، يستطيل ظله، يتبعه ظل آخر، يكادان يتلاحمان ليصنعا ظلًّا أكبر، غير أن الأخير ظل على ابتعاده من جسد الرجل، فحيح يتسلل إلى أذنيه، ينظر إلى الوراء، فلا يستبين له شيء من الظلمة، مدّ قدميه، وأسرع يقطع الشارع، يرى يدًا تكاد تتجسد قبالة رأسه تكتسي عظامها لحمًا، يراوغها، ويدخل إلى بيته، يتسلق السلالم، وسط صيحات تتبلور، ميَّز منها كلمة (هانت)، يفتح باب شقته، يتنهد وهو يلقي بالمفاتيح في ركن الغرفة، يفتح أنوار الشقة تمامًا، يتغطى بالبطانية، ويقرر أن يترك جسده يتهاوى أمام التلفزيون، داعب النوم جفنيه فثَقُلا.

يستيقظ بغتة، فيجد الأنوار جميعها مطفأة، يصرخ فلا تخرج الصرخة، يعبث في الظلام ويصطدم بكل شيء، يدس يده في جيب بنطاله، فيتسلم هاتفه، يفتح بطاريته بارتعاش يده، فيتسرب نور هاديء مضطرب، يحاول ألا يفكر في الأنوار المطفأة بفعل انقطاع التيار، معلقة عيناه بركن يرى فيه حركة غير طبيعية، سواد يتحرك ببطء كأنه دخان يتجمع، يقترب من وجهه فيراها!

تدمع عيناه، فتكتسيان بطبقة زجاجية، يرى عبر شفافيتها الظلال تتراقص لتنحت جسدًا يعرفه، تنقض على عنقه تطبق على فمه وأنفه، يمد يده لينزع اليد التي تخنقه، فلا يرى يدًا، يصرخ في داخله فلا يعود إليه صدى، يزيحها عنه الفراغ، فلا يجد شيئًا تغير، تجحظ عيناه في عينيها، يعرف أنه العودة أضحت مراكب محطمة، لا مفرّ من إكمال الطريق، يخفق قلبه كأنه قطرات أمطار متتابعة، يقف على قدميه، ويجري في أركان الغرفة، يشهق ويسعل فلا يتسلل شيء إلا رئتيه، تتوقف أجهزته عن العمل كأنها سيارة تتعطل شيئًا فشيئًا، يتعاظم الظلام، ويشتد عوده، يشعر بعروقه قد تمددت.

يراها وقد انتصبت واقفة، حاملة كل مخاوفه، تلقيه في البحر!